تاريخ البيمارستانات
فى العهد الاسلامى

للاستاذ البحاثة أحمد بك عيسى

— ٢ —

وكانت قاعات البيمارستانات فسيحة ومشيدة بأحسن البناء وكان الماء فيها جاريا (١)

وللبيمارستان صيدلية تسمى شرابخاناه ولها رئيس يسمى شيخ صيدلاني البيمارستان (٢)

وكان للبيمارستان رئيس يسمى ساعور (٣) البيمارستان ولكل قسم من أقسامه رئيس فكان فيه رئيس للطب ورئيس للجراحية والمجبرين ورئيس للكحالة .

وللبيمارستان الفراشون من الرجال والنساء والمشارفون والقوام للخدمة أيضا (٤) ولهم المعالم على ذلك .

المعالجة والدروس الاكلينيكية

كان فى البيمارستان حالان من المعالجة : معالجة خارج البيمارستان يأخذ المريض فيها دواءه يتناوله فى بيته ، ومعالجة داخل البيمارستان يقيم المريض فى اثنائها فى البيمارستان نفسه حتى يشفى من مرضه .

فاما المعالجة الخارجية فكان الطبيب يجلس فى أثنائها على دكة ويكتب لمن يأتى إلى البيمارستان ويستوصف منه للمرض أو راقا يعتمدون عليها ويأخذون بها من البيمارستان الأشربة والادوية التى يصفها (٥)

وأما المعالجة فى داخل البيمارستان فكان المرضى يوزعون على قاعاتهم بحسب أمراضهم ، وكان

---

(١) ص ٢٦٠ ج ٢ أصيبعة

(٢) ص ٣٠٩ ج ١ أصيبعة

(٣) الساعور مقدم النصارى فى معرفة علم الطب وهو بالسريانية ساعورا ومعناه متفقد المرضى

(٤) ص ١٥٥ أصيبعة ج ٢

(٥) ص ٣٤٢ أصيبعة ج ٢

لكل قسم من أقسام البيمارستان طبيب أو اثنان أو ثلاثة (١) بحسب اتساعه وكثرة عدد المرضى وكان إذا دعت الحال يدعى طبيب من قسم آخر للاستشارة (٢) وكان الاطباء يشتغلون فى البيمارستان بالنوبة فجبريل بن عبيد الله بن بختيشوع كانت نوبته فى الاسبوع يومين وليلتين (٣)

الدروس الاكلينيكية بالبيمارستان

قال موفق الدين أبو العباس بن أبى أصيبعة (٤) « كنت بعد ما يفرغ الحكيم مهذب الدين والحكيم عمران من معالجة المرضى المقيمين بالبيمارستان وأنا معهم أجلس مع الشيخ رضى الدين الرحبى فأعاين كيفية استدلاله على الامراض وجملة ما يصفه للمرضى وما يكتب لهم وأبحث معه فى كثير من الامراض ومداواتها » وقال « وكان معه (أى مع مهذب الدين) فى البيمارستان لمعالجة المرضى الحكيم عمران وهو من أعيان الاطباء وأكابرهم فى المداواة والتصرف فى أنواع العلاج فتضاعفت الفوائد المقتبسة من اجتماعهما ومما كان يجرى بينهما من الكلام فى الامراض ومداواتها ومما كان يصفان للمرضى » وذكر موفق الدين أبو العباس بن ابى أصيبعة (٥)

نقلا عن شيخه مهذب الدين عبد الرحيم بن على « انه كان معه فى البيمارستان الكبير النورى وهو يعالج المرضى المقيمين به فكان من جملتهم رجل به استسقاء زقى قد استحكم به وقصد الى بزله وكان فى ذلك الوقت فى البيمارستان ابن حمدان الجراحى وله يد طولى فى العلاج فجزموا على بزل المستسقى قال فحضرنا وبزل الموضع على ما يجب » وذكر أن أبا المجد بن أبى الحكم (٦) كان يدور على المرضى بالبيمارستان الكبير النورى وينتقد أحوالهم ويعتبر أمورهم وبين يديه المشارفون والقوام لخدمة المرضى فكان جميع ما يكتبه لكل مريض من المداواة والتدبير لا يؤخر عنه ولا يتوانى فى ذلك قال وبعد فراغه من ذلك يأتى فيجلس فى الايوان الكبير الذى للبيمارستان وجميعه مفروش ويحضر كتب الاشتغال وكان السلطان نور الدين محمود بن زنكى قد وقف على هذا البيمارستان جملة كبيرة من الكتب الطبية وكانت فى الخرستانين (الدولابين) اللذين فى صدر الايوان فكان جماعة من الاطباء والمشتغلين يأتون اليه ويقعدون بين يديه ثم يجرى مباحث طبية ويقرىء التلاميذ ولا يزال معهم فى اشتغال

(١) ص ٢٤٢ و ٢٤٣ أصيبعة ج ٢ (٢) ص ١٧٩ أصيبعة ج ٢ (٣) ص ١٤٨ ابن القفطى
(٤) ص ٢٤٣ أصيبعة ج ٢ (٥) ص ١٧٩ أصيبعة ج ١ (٦) ص ١٥٥ أصيبعة ج ٢

ومباحثة ونظر فى الكتب الطبية مقدار ثلاث ساعات (١) ثم يركب إلى داره .

وكان بعض متقدمى الأطباء قد جعل له مجلساً عاماً لتدريس صناعة الطب للمشتغلين عليه .

وقد وقف مهذب الدين عبد الرحيم بن على سنة ٦٢٢ الدار التى له بدمشق وجعلها مدرسة يدرس فيها صناعة الطب ووقف لها ضياعاً وعدة أماكن يستغل منها ما ينصرف فى مصالحها وفى جامكية المدرسة وجامكية المشتغلين بها .

ولم يكن الاطباء يغفلون النظر فى أبوال المرضى فقد كانوا يسمون ذلك «القارورة» فما كان يعالج مريض دون نظر الطبيب الى قارورته ، ولهم فى نظرها آراء وعلامات يتعرفون منها حالة البول من صحة وسقم ونحن نقص الحكاية الآتية للدلالة على مهارة الاطباء وقوة استدلالهم وحسن استنتاجهم من حال البول . أراد الرشيد أن يمتحن بختيشوع الطبيب أمام جماعة من الاطباء فقال الرشيد لبعض الخدم أحضره ماء دابة حتى نجربه ، فمضى الخادم وأحضر قارورة الماء فلما رآه قال: ياأمير المؤمنين ليس هذا بول انسان ، قال له أبو قريش وقد كان حاضراً كذبت هذا ماء حظية الخليفة فقال له بختيشوع : لك أقول أيها الشيخ الكريم لم يبل هذا انسان البتة و إن كان الامر على ما قلت فلعلها صارت بهيمة ، فقال له الخليفة من أين علمت أنه ليس ببول انسان ؟ قال بختيشوع لانه ليس له قوام بول الناس ولا لونه ولا ريحه ثم التفت الخليفة الي بختيشوع فقال له ماترى أن نطعم صاحب هذا الماء ؟ فقال شعيراً جيداً فضحك الرشيد ضحكا شديداً وأمر فخلع عليه خلعة حسنة جليلة ووهب له مالا وافراً وقال «بختيشوع يكون رئيس الأطباء كلهم وله يسمعون و يطيعون» (٢)

وكانت للطبيب الحرية التامة فى العمل والتجريب واستنباط الاساليب المناسبة للعلاج وكانت هذه التجاريب تدون في كتب خاصة يقرأها الجمهور ، فقد كان لأبى البيان المدور المتوفى ٥٨٠ هـ / ١١٨٤ م بالقاهرة كتاب فى تجرباته فى الطب وكان للساهر يوسف القس كناش وهو ما استخرجه وجربه فى أيام حياته (٣) ولافرائم بن الزفان تعاليق وتجربات .

ولابن العين زربى تجربات فى الطب ولأبى بن الفضائل الناقد تجربات في الطب .

ولابى المعالى تمام بن هبة الله بن تمام تعاليق وتجربات فى الطب .

وكان لبعضهم أنواع من العلاج هي من مبتكرات قرائحهم كعلاج أوحد الزمان أبى البركات

(١) ص ١٥٥ أصيبعة ج ٢ (٢) ص ١٢٦ أصيبعة ج ١ (٣) ص ٢٠٣ أصيبعة ج ١

هبة الله بن علي بن ملكا بالوهم (١) فما يدل على مهارته في المعالجة والمداواة أن مريضاً ببغداد كان قد عرض له علة المالیخوليا وكان يعتقد أن على رأسه دناً وانه لا يفارقه أبداً فكان كلما مشى يتحايد المواضع التي سقوفها قصيرة ويمشي برفق ولا يترك أحداً يدنو منه حتى لا يميل الدن أو يقع عن رأسه وبقي مدة وهو في شدة منه وعالجه جماعة من الاطباء ولم يحصل بمعالجتهم تأثير ينتفع به وأعيى أمره الي أوحد الزمان ففكر أنه ما بقي شيء يمكن أن يبرأ به الا بالامور الوهمية (٢) فقال لأهله اذا كنت بالدار فأتوني به ثم إن أوحد الزمان أمر أحد غلمانه بأن ذلك المريض اذا دخل اليه وشرع في الكلام معه وأشار الى الغلام بعلامة بينهما أن يسارع بخشبة كبيرة فيضرب بها فوق رأس المريض على بعد منه كأنه يريد كسر الدن الذي يزعم أنه على رأسه وأوحى غلاماً آخر وكان قد أعد منه دناً في أعلى السطح انه متى رأى ذلك الغلام قد ضرب فوق رأس صاحب المالیخوليا أن يرمي الدن الذي عنده بسرعة الى الارض ولما كان أوحد الزمان في داره وأتاه المريض شرع في الكلام معه وحادثه وأنكر عليه حمله للدن وأشار للغلام الذي عنده من غير علم المريض فأقبل اليه وقال والله لا بد لي أن أكسر هذا الدن وأريحك منه ثم أدار تلك الخشبة التي معه وضرب بها فوق رأسه بنحو ذراع وعند ذلك رمى الغلام الآخر الدن من أعلى السطح فكانت له وجبة عظيمة وتكسر قطعاً كثيرة، فلما عاين المريض ما فعل به ورأى الدن المتكسر تأوه لكسرهم اياه ولم يشك أنه هو الذي كان على رأسه بزعمه وأثر فيه الوهم أثراً برئ به من علته تلك.

ومع الهمة الزائدة والتدبير الحسن والعناية التامة التي كانت لهم براحة المرضى فقد كان لهم من حسن الخلق وطول الاناة والتسامح مع المرضى الشيء الكثير.

فقد كان أبو الحسن سعيد بن هبة الله (٣) يتولى مداواة المرضى بالبيمارستان العضدي وانه كان يوماً بالبيمارستان وقد أتى الي قاعة الممرورين يتفقد أحوالهم ومعالجتهم واذا بامرأة قد أتت اليه واستفتته فيما تعالج به ولداً لها فقال «أن تلازميه بتناول الاشياء المبردة المرطبة فهزأ به بعض من كان مقيما في تلك القاعة من الممرورين وقال هذه صفة يصلح أن تقولها لاحد تلامذتك ممن يكون قد اشتغل بالطب وعرف أشياء من قوانينه وأما هذه المرأة فأي شيء تدري ماهو من الاشياء المبردة المرطبة وإنما سبيله أن تصف لها شيئا معينا تعتمد عليه»

(١) ص ٢٧٩ و ١٢٧ أصيبعة ج ١ (٢) ص ٢٧٩ أصيبعة ج ١ (٣) ص ٢٥٤ أصيبعة ج ٢

فلم يتحرج الطبيب من هذا القول ، ولا غرابة فقد كانوا من العلم والفهم وعلو النفس وسمو الخلق على شيء كثير ، فأوصلتهم صفاتهم هذه الى أعلى مكان فقد كان القاضي ابن المرخم يحيى بن سعيد الذي صار أقضى القضاة في الايام المقتفية ببغداد طبيبا في المارستان المحمول وفصادا فيه (١) والامام العالم علامة زمانه أفضل الدين أبو عبد الله محمد بن ناماوار الخونجي قد تميز في العلوم الحكمية وأتقن العلوم الشرعية وفي آخر أيامه تولي القضاء بمصر وصار قاضي القضاة بها وبأعمالها توفي سنه ٦٤٦ (٢) وصار سعيد بن البطريك بطريكا بالاسكندرية (٣)

طبيب مكفوف

كان تعلم الطب مكفولا لأي من كان مبصراً أو مكفوفا ذكراً أو أنثي فقد كان أبو الحسن علي ابن ابراهيم بن بكس طبيباً مكفوفا وكان فاضلا عاملا بصناعة الطب متقنا لها غاية الاتقان وكان يدرس الطب في البيمارستان العضدي ويفيد الطالبين وكان إذا أراد معرفة سحنات الوجوه وحال بول المرض حول على من يكون معه من تلاميذه في وصفه ذلك (٤)

وكانت زينب طبيبة بني أود من الماهرات في صناعة الكحالة عالمة بصناعة الطب والمداواة ولها خبرة جيدة بمداواة آلام العين والجراحات . مشهورة من العرب بذلك ذكر ابو الفرج الاصفهاني في كتاب الاغاني « قال رجل من الاعراب أتيت امرأة من بني أود لتكحلني من رمد كان أصابني فكحلتني ثم قالت اضطجع قليلا حتى يدور الدواء في عينيك فاضطجعت ثم تمثلت قول الشاعر :

أمخترمي ريب المنون ولم أزر طبيب بني أود على النأي زينبا

فضحكت ثم قالت أتدري فيمن قيل هذا الشعر ؟ قلت لا قالت في والله قيل وانا زينب التي عناها وأنا طبيبة بني أود أفتدري من الشاعر ؟ قلت لا قالت عملة ابو سماك الاسدي (٥)

(للبحث بقية) أحمد عيسى

(١) ص ٤٠٥ ابن القفطي
(٢) ص ١٢٠ أصيبعة ج ٣
(٣) ص ٨٦ أصيبعة ج ٢
(٤) ص ٢٣٦ ابن القفطي
(٥) ص ١٢٣ أصيبعة أول